

محادثة

بين الأسد البريطاني والدب الروسى

الأسد : — ألا يحزنك أيها الدب أن ترى ما آل إليه أمرنا فى الغابة من خلاف بعد وفاق ، وتباعد بعد تقارب ، ومعسرة بعد ميسرة ، وشك وحذر وتربص ، بعد إيمان وثقة وتفاهم ساد بيننا فى أثناء عرا كنا المشترك مع الوحش حتى أمكننا التغلب عليه فى النهاية ؟ وجزى الله الشدائد كل خير ؛ فقد علمتنا أن نكون معاً فى الحرب ، ولعلها أن تعلمنا كيف نتفق فى السلم .
هيا أيها الدب ! تعال إلى كلمة سواء بينى وبينك ألا نؤمن إلا بالحق والحرية والتعاون على نشر السلام فى ربوع الغابة جميعا .

الدب : — إننى أيها الأسد لست من فصيلتك ، وليس بينى وبينك من المشاركة فى الصفات أو الصلات أو الطباع ما يساعد على إنشاء هذا التآلف الذى تنشده . وقد علمنا آباؤنا وأجدادنا طوال القرنين الماضيين أن نكرهك ونمقتك ونكون على حذر دائم منك . وإذا كانت ظروف الحياة أو الموت قد أكرهتنا أن نشترك معاً فى الحرب الأخيرة زهاء أربع سنوات أو أكثر قليلا ، فلانفس أنك شنت علينا فى منتصف القرن الماضى حرباً شعواء يذكروها التاريخ باسم حرب القرم ، نسبة إلى شبه الجزيرة التى دارت فيها رحى معاركها ، وهى المكان نفسه الذى اعتصم فيه الوحش فى الحرب الأخيرة . وقد ألّبتم علينا فى تلك الحرب دول أوروبا ، فأرسلت قواتها تؤازر سلطان تركيا ضدنا وضد الصليب الذى طالما تشدقتم بدعوى نصرته . وكنا بمفردنا أمام عصابتكم تلك ، فانهزمنا وقاسينا من أهوال الحرب ألواناً لا يشبهها إلا بعض ما قاسيناه أخيراً . وفى النهاية لم يسعنا سوى طلب الصلح ، فأملتيم علينا شروطاً مذلة مالبثنا أن

تحررنا منها وأنتم راغمون . على أن هذا لم يكن آخر عهدكم بنا وأتينا ؛ فقد دأبتم على الكيد لنا ومعارضة مصالحنا بكل ما أوتيتم من قوة .

أنسيت أيها الأسد أنكم أتمم الذين رفعوا سعر التين اليابانى فى السوق الدولية بتحالفكم مع اليابان سنة ١٩٠٢ ، وأن هذه المحالفة كانت مقدمة للحرب الروسية اليابانية التى قضت على سمعتنا الحربية والبحرية وأذلتنا فى نظر الدول جميعاً . وأقسم أنه لولا هذه الهزيمة وظهور قوة ألمانيا البحرية منافسة لكم فى أوائل هذا القرن ، مارضيتم أن تكفوا عن مناوأتنا أو تأخذونا إلى جانبكم فى الحرب الماضية .

وهل يمكن أن ننسى ما قاسيناه على أيديكم أثر نورسا الكبرى وبعد الحرب العالمية الأولى من طرد وحرمان وإذلال وعدوان لا تزال آثاره ماثمة باقية إلى وقتنا هذا ؟ تلك حقائق قد وعها العقل الروسى واختبرها فى أعماق أغوارها فلا سبيل إلى نسيانها ألبتة .

لا أيها الأسد ! لا تحاول أن تتخدعنا . إن التاريخ والسياسة قد تأمرا على إخفاق حركة التفاهم بيننا .

الأسد : — لاتنس أيها الدب أن الزمان قلبٌ ، وأن السياسة لاتسير على وتيرة واحدة ، وأن الحكيم من لاءم بين سياسته وحاجات زمانه ، واحتاط فى يومه لمستقبله . وإذا كانت الظروف فى الماضى قد أكرهتنا على محاربتكم ذات مرة فقد علمتنا الحرب الأخيرة فائدة التعاون بيننا وبينكم . ولا إخالك تنكر مدى المساعدة التى قدمنها لك أنا وابن عمى الأمريكى ضد الوحش الذى أنشب أظفاره فى عنقك ، وكاد يمزق جسمك أشلاء .

الدب : — تلك أكذوبة لم نسمع بها ولم نقرأ عنها . إنما قرأنا وتحدث الركبان أن الوحش قد طاردكم حتى طردكم من أوربا ، وأنزل بكم فى دنكرك هزيمة منكرة لو أنه تابعها إلى عرينكم لبادت فصيلتكم ولعرت جزيرتكم تدميراً .

الأسد : — ليس من ذنبنا أن تستهزئ بكم حكومتكم وصحافتكم ، فتخفى عنكم الحقائق الواقعة ، ولا تطلعكم من حقائق الموقف الدولى إلا على ما يوافق

أغراض زعمائكم . أما قولك إن الوحش قد هدد فصيلتنا بالانقراض فردود عليك ؛ فقد كان موقفه معنا مجرد تهديد أجوف . أما موقفه معكم فكان حقيقة واقعة ؛ فقد داس أراضيكم وتحكم في مواردكم وأخضع لسلطانه جزءاً من بلادكم . ولو قد استعمل الوحش ضدكم تخليبه الأماميين والخلفيين جميعاً لفتك بكم فتكاً ذريعاً ؛ ولكننا شغلناه عنكم فلم ينلكنم منه إلا مغب أو مغبان فنجوتم .

الدب : — إذا كنت تقصد بقولك تلك الأجزاء من الأرض المقفرة التى غزاها فقد كان ذلك حقاً ، ولكن كان باختيارنا وطوع إرادتنا حين ارتدنا عنها وتركناها يمسحها جيئةً وذهاباً أكثر من مرة . ولكنه لم يستطع أن يغزو قلب الروسى قط . فليس فى العالم كله مثل الروسى فى صدق العزيمة وقوة التصميم والاعتماد على النفس فى أوقات الشدة . وأظن أن العالم سيتحدث جيلاً بعد جيل عن بطولتنا فى موقفنا إزاء الوحش ؛ فقد قمنا بأعظم مجهود عرفه التاريخ فى سبيل التحرر ، وكسر شوكة ذلك الوحش الجبار الذى فرض كلمته على الغابة كلها قرابة خمسة أعوام .

الأسد : — اذكر أنك لم تكن وحدك ضد الوحش .

الدب : — أتريد أن تقول إنه لولا مساعدتكم لوهن موقف روسيا أمامه . ألا فلتعلم أن الماديات وحدها لا تكسب الحرب ، وإنما المعول على القوة الروحية وعلى الأعصاب الفولاذية التى يتحصن بها الشعب جميعه فى كفاحه وتصميمه . وإنى لجد فخور بما أظهرته حكومتى من حسن تدبير وبعد نظر ؛ فقد نفذنا منذ سنة ١٩٢٩ مشروع السنوات الخمس مرتين ، واستطعنا بتضحياتنا أن نحول روسيا الزراعية إلى بلاد صناعية هائلة ، فأسسنا المصانع الكبرى للإنتاج الحربى والاقتصادى ، وضللنا خبراءكم وخبراءهم وأعوانكم وأعوانهم ، وأخفينا مصانعنا فى بطون جبال الأورال بمنأى عن الأنظار وبأمن من العدو . ولولا إنتاج هذه المصانع السرية ما أجدت علينا مساعداتكم شيئاً ولا أغنتنا قليلاً . ولقد توقعنا أنكم سترتبون فى سياستكم وستخلطون وتتخبطون ، وأن أنفسكم الامارة بالسوء ستوحى إليكم أن تعدروا بنا فتصرفوا أنظار الوحش عنكم إلينا وتوجهوه

ضدنا، ينفرد بنا، وإذ ذاك يحلو لكم أن تروا أعداءكم يتطاحنون وأنتم بمنجاة. ولا بد أن تكونوا قد قدرتم أن ينتصر الوحش علينا لفرط غفلتكم وظنكم به القوة، وحينئذ ينجو العالم مما تسمونه شر الشيوعية، ويخرج الوحش النازى منهوك القوى فلا يجسر على مهاجتمكم. ألم تهللوا فى سنة ١٩٣٨ لاتفاق ميونيخ؟ ألم تدق أجراس الكنائس فى بلادكم شكراً لله على خلاصكم من الوحش؟ فهلا فكرتم حينئذ فى مصيرنا! وهلا دعوتونا إلى مشاركتكم! ألم نكون خليقين بمقعد خامس معكم إلى جانب فرنسا وإيطاليا؟ إن الأمر لواضح وضوح الشمس. لقد قررتم إنقاذ جلودكم؛ لتدعونا طعاماً شهياً للوحش.

الأسد: — الغلظة الكبرى التى ترتكبونها الآن هى التى ارتكبتها الوحش من قبلكم. إنكم تظنون حبنا للسلام ضعفاً، وتحسبون رغبتنا فى المسالمة جبناً. إننا قوم طبعنا على تعشق الحرية الفردية، وإننا للمقت الحرب أشد المقت، ونكره التسلط فى كل مظاهره. فنحن لا ندين كغيرنا بالخدمة العسكرية الإجبارية ولا نبرر قيام الجيوش والقوادى العسكريين إلا فى الظروف القصوى. لذلك تروننا نتعثر ونرتبك؛ وقد تصيبنا الهزيمة فى أول الأمر كلما اشتركنا فى حرب مفاجئة؛ حتى إذا تأملنا فى جو الحرب ومرنت عليه نفوسنا وعقولنا وصممت عليه عزيمتنا وإرادتنا، بذلنا أقواتنا وضحينا بأرزاقنا وأعمالنا وسخرنا للحرب بجوئنا وإنتاجنا ومعاملنا ومصانعنا، وكل ما نملك من قوى مادية ومعنوية؛ فإذا نحن أمة قد خلقت خلقاً جديداً. وما هى إلا فترة تطول أو تقصر حتى يتحول اليأس بأساً، وتستحيل الهزيمة نصراً مبيناً.

لذلك أوكد لك أيها الصديق أننا كنا صادقين فى ميونيخ، مخلصين فى حب السلام إخلاصاً دفعنا إلى أن نبذل فى سبيله من عزتنا وكبريائنا بل من شرفنا فى نظر أصدقائنا.

الدب: — ولماذا كل هذه التعمية وهذا التضليل؟ قل بالصراحة إنكم لم تكونوا مستعدين للحرب، وإنكم آثرتم شراء السلم فى سنة ١٩٣٨ بأى ثمن حتى تأخذوا أهبتكم للحرب، وتحاولوا اللحاق بالوحش الذى سبقكم وتفوق عليكم

درجات في استعداداته . قل بالصراحة إن نفوسكم كانت خائرة ، وإن قلوبكم قد ملئت رعباً من الوحش . لقد كنا نعلم عنكم هذا وأكثر منه ؛ ولذلك لم نلق بالآء إلى بعثتكم السياسية حين بعثتموها إلينا في أخرج الساعات تطلبون بها معوتتنا .

الأسد : — لا . بل نطلب بها محالفتكم مخالفة حرة ؛ لنندراً بالجهد المشترك خطر الوحش .

الدب : — حقاً إنكم لدهاة في السياسة ، ولديكم معين لا ينضب من المصطلحات التي تكسون بها أغراضكم ؛ فتارة تسمونها مخالفة ومعاودة ، وطوراً تسمونها انتداباً أو وصاية ، وحيناً تسمونها مجالس أمن أو دفاع مشترك — وكلها في الحقيقة أغطية شفافه تحاولون بها أن تستروا أجساد أنانيتكم العارية . لقد أردتم بمحالفتنا أن نتخذونا مخلص القط تلتقطون به من النار ثمر القسطل ، فتعرضونا لضربة العدو ودفعته الأولى . وماذا كان يهمكم من أمر انتصارنا أو هزيمتنا وأتتم في الغرب ونحن في الشرق ؟ !

لذلك قابلناكم بسلاح من نوع سلاحكم ، فماطلناكم وأغويناكم ، وفحناب المفاوضات مع العدو ، ووضعنا على رأس خارجيتنا وزيراً جديداً ومولوتوف الذي عرفتموه اليوم جيداً ، ليدير دفة السياسة الجديدة . وكانت طلبت الوحش منا أن نلزم الحيدة إذا ما نشبت الحرب ، وهى طلبت في الغاية من السهولة إذا قيست بما عرضتموه علينا ، فقبلنا محالفته ورددنا كيدكم إلى نحوركم . وانتفعنا بمخالفة الوحش وهو منتش بحمرة النصر ، فضممنا دول البلطيق التي كانت جزءاً لا يتجزأ من أرض الوطن قبل الحرب العالمية الأولى ، واسترددنا بساراييا من رومانيا ، وعدنا إلى حدودنا القديمة في بولندة ، وحاربنا فنلندة التي كانت تهدد لنينجراد . ولما آنسنا من الوحش الغدر والشروع في الانتقاض علينا ، دبرنا أمورنا سرّاً فجهزنا معاملنا ، وعقدنا مع التنين الياباني معاهدة الحيدة إذا هوجمنا ، فكانت ضربة سياسية بارعة أسدت على الوحش مارسمة : خطط لاغتيالنا .

أرأيت أيها الأسد أن الدب لا يقل عنك في براعته السياسية ، وإنما الفرق بيني وبينك أنك خبيث وأنا صريح .

الأسد : — علم الله أنى لست خبيثا ، ولا أضمر الشر لأحد فى العالم . واخبت من شيم الضعفاء الذين تنقصهم الخبرة وحسن سياسة الأمور . وما كان نجاحي وما بلغت من مكانة فى الغابة نتيجة لمكر أو خبت أو صِمتُ به ظلما ، ولكن الظروف واتتني ، وخدمتني المصادفات السعيدة فى مختلف أرجاء الغابة . وإنى لأكره أن أتكلم عن نفسى ، ولكن مادمت تدفعنى إلى ذلك فإنى أقول لك : إن الحظ + الشجاعة + الأخلاق = النجاح . فاحفظ هذه المعادلة .

وإذا كنت قد أخطأت كسائر البشر فى تقدير موقفكم قبيل الحرب الأخيرة فأعلم أنى وسكان الغابة جميعا كنا نعتقد جازمين أن ثورتكم قد هدّت من كيانهم وضعضعت نظامكم ، وقللت من حماسة رجالكم ، وأنكم إذا جد الجد لا تقوون على الوقوف أمام الوحش طويلا ، فلا يلبث أن يكتسحكم كما اكتسح غيركم من قبل .

ومن ذا الذى كان يظن أن نظاما أو تجربة كالبشفية تستطيع أن تنتج مثل هذه المعجزة ؟

الدب : — يلوح لى أنك تنقص فضل البشفية وتسخر منها وتظن بها الظنون . وليس هذا بمستغرب منك ؛ فدولتكم تقوم على سيادة أصحاب رءوس الأموال وإن كنتم تسمونها ديمقراطية .

الأسد : — ودولتكم تقوم على الدكتاتورية أو الفاشية ، وإن كنتم تسمونها حكومة الشعب .

الدب : — أتقول الفاشية ؟ هذه سبة ، ولست أسمح لك مطلقا أن تنتقص من قدر حكومتى ، وسأعلمك كيف تحترم ...

وهنا طاول الدب أن يمد مخبله ، فقام الأسد غاضبا وقال :

الأسد : — كنت أظن أن محادثتنا ستنتهى كما بدأت فى اتزان وروية وحسن قصد متبادل . فأما وقد تقمصت طباع الوحش الذى هزمناه ، فإنى ذاهب لعرض أمرى وأمرك على مجلس الغابة .

الدب :- إني آسف . . .

الأسد :- حبذا هذه اللهجة ! ولست أدري لماذا لا نصطنعها في أثناء مناقشاتنا في المؤتمرات واللجان التي نعقدها .

الدب :- دع العواء والزئير للمؤتمرات ، ولنكن الآن في هدنة علمية وإلى اللقاء .

في الحقيقة أغضبته شغافه بكونها لم تأخذ بيوتها وأنها لم تأخذ بيوتها . . .
لقد جئت أنا سلفك فبطلت الأمر . . .
القبائل ، فتمرضونا أضرة العدو ودفعته الأولى . وماذا كان يهكم من أمر

انفصلنا أو من روسيا وألم في الغرب . . .
التي كانت تسيطر على روسيا . . .
التي عرفتوه اليوم جيداً ، ليدرد في السياسة الجديدة . وكانت تلبس الوحش

من أن يتركها . . .
تأخرت عندها علينا ، قبلنا مخالفت وردنا كيدكم إلى محورك . . .
الوحش وهو منتقم خيرة النصر ، فبعضنا دول التطبيق التي كانت جزءاً لا يتجزأ

من أن يتركها . . .
وعدا إلى حدودنا القديمة في بولندا . . .
ولما آتينا من الوحش العذر والشرع في الانتقام علينا ، دبونا أمورنا مرة . . .
لجونا معاملتنا ، وعقدت مع القس الألمان المعاهدة الجديدة إذا هو جئت . . .
خبرة سياسية بأربعة أفسس من الوحش مارسيه . . .

أدرك أن الأسد أن الدب لا يملك في رعايته السياسية ، وأما الفرق
بين وبينك أنك حينئذ والفرق . . .
قبلنا سلفك في شأه أعز أن يعايناه